كتاب مناهج التربية في الأسلام ـ من منظور محمد قطب

عرض وتحليل

إعداد

الدكتور/ محمود محمد عبدالكريم آل كنه

جامعة الموصل – كلية التربية الاساسية – قسم التربية الخاصة.

طرائق تدريس التربية الاسلامية.

E- mail : Mahmood.mohammed1975@yahoo.com

ملخص

يتبع البحث الحالي تحليل المحتوى منهجا للبحث، حيث يتناول الافكار التي طرحها المربي (أ. د. محمد قطب) في بيانه لمنهج التربية في الاسلام (من خلال كتابه مناهج التربية في الاسلام) الواقع في جزئين متخذا نصوص القرآن الكريم دستورا والذي أنشأ مجتمعا برمته ونقلهم من ضلالة مضلة الى نور تام في زمن قياسي، ومن اشتات ثناثرت وتبعثرت في الصحارى الى قوة خضعت لها الامبراطوريات. وقد ظهرت الحاجة الى تحليل هذا الكتاب برغم من تواجد المؤلفات الكثيرة على رفوف المكتبات قد تناولها الغبار ولم يُعِر لها احد اهمية تذكر، وجاء اختيار هذا الشخص دون سواه لأسباب كثيرة اهمها:

1- ان التجربة التي قد خاضها هذا المربي في عمره الذي تجاوز 90 عام حين وافته المنية قضى ما يزيد على 60 عاما منه في التربية والتعليم.

2- ترك العشرات من الكتب في هذا الميدان، وبالرغم من إن مؤلفاته لم يحظ باهتمام يليق بها في العالم العربي فإنها ترجمت الى لغات عالمية فكانت منهجا في جامعات دول اسلامية من غير الدول العربية مثل تركيا وايران وماليزيا وباكستان وسواها.

3- النظرية التي اشتقها من القرآن الكريم يصور ابعادا يتناول الانسان من جميع جوانبه (النفسية والعقلية والجسمية). وجعل دراسته من شقين الاول، الفرد كوحدة أصيلة في بناء المجتمع، ومن ثم يتناول المجتمع بتفاصيله ويشد الوثاق ليرقى به الى القمم. اما الشق الثاني فيصور تطبيقات عملية لتلك النظرية التي طرحها القرآن.

وتمخضت الدراسة نتائج اهمها؛

1- ان القرآن الكريم الذي نهض بأمة في سالف العهد قادر على ان ينهض بالامة المتمسكة به في هذا العصر.

2- لم يلتزم القرآن الكريم في تربيته على التمسك بالدين على حساب الدنيا ولا العكس، بل حافظ على التوازن الذي يتكفل بتحديد المسار نحو الاتجاه الصحيح.

3- لم يهمل القرآن الكريم جانبا من جوانب الشخصية على حساب جانب اخر، فمثلا اعطى الجسد حقه واعطى الروح (النفس)، والعقل وسائر الجوانب حقوقها.

4- التزم القرآن الكريم في تربيته على تكافؤ الفرص في المجتمع من جهة ومن جهة اخرى الايمان المطلق بأن التكليف على قدر الطاقة والمستطاع، ولا يتم تحميل الفرد اكثر مما يحتمل.

5- اعلن الاسلام ومن خلال دستوره النازل من الله سبحانه ان الانسان حر في اختيار دينه وعقيدته وبذلك قال لا اكراه في الدين، والتسامح منهج الاسلام الواضح والدعوة الصريحة للتعايش.

Abstract

The following research deals with ideas analysis as a research methodology. It addresses ideas mentioned by educator (professor Dr. Muhammad Qutb) in his statement for education in Islam (by his book Education Curricula in Islam) that includes two parts and takes from The Holy Quran as constitution in its texts that created a society and transfer them from astray to perfect light in record time. Also, it transfers the society from weak and scattered in the deserts ruins into power underwent by empires. The need to analyze this book in spite of the existing of many books on shelves of libraries and full of dust and have not mentioned by anybody. The selection of this person without other came for many reasons:

1. The experiment by this educator by his age that exceeded 90 years when he died and spent more than 60 years in education.
2. He left tens of books in the field. In spite of his great writings, he has not witnessed high interest in the Arab World where his writings translated into many global languages and they were curriculum in universities of Islamic countries of nonArab countries such as Turkey, Iran, Malaysia, Pakistan and others.
3. The theory derived from The Holy Quran dries dimensions to address the human from all of its sides (psychological, mental and physical). His study consisted of two-fold. The first fold is individual as original unit in construction of society. Then, it addresses the society by all of its details and tighten the bond to raise them in the nations. While the second fold, it addresses practical applications for that theory mentioned by The Holy Quran.

مشكلة البحث

جاء اليوم هذا البحث لتقديم صورة علاجية للفوضى العارمة التي تعتري اغلب شعوب العالم (والاسلامية منها خاصة) من خلال عرض لمنهج رباني عالج سابقا مجتمعات ورفع شأنها عاليا، وما تعيش الامة الاسلامية في التربية خاصة فضلا عن الملل والنحل الاخرى هو تخبط في بعض اوجه تعاملاتها المختلفة سواء على مستوى التربية والتعليم او مختلف مناحي الحياة الاخرى سياسية كانت او اجتماعية او اقتصادية او غيرها. في يوم يشار بأصبع البنان بالاتهام بالارهاب على دين اشتق اسمه من السلام فكان الاسلام اسمه والتسامح والتعايش والعفو سجيته وابرز خصاله. ولرفع الالتباس عن ادعاءات طرفين متناقضين ففي كفة هنالك من يقول ان القتل واستباحة الحرمات هي سجية تفرد بها المسلمون او انه باتت صفتهم من خلال سوادهم الاعظم التي وقعوا في اوحال ذلك الفوضى، والطرف الاخر المدافع عن دينه والقائل ان المنهج الرباني الذي اصلح المجتمع وانضوى تحت لوائه ملا وشعوبا واديانا شتى عبر عقود من الزمن لم يجرب ضدهم انتهاك ذكروه عبر

التأريخ. وجاء البحث اليوم لتعالج هذه التجاذبات واختلاف الرؤى من خلال ما ذكره محمد قطب في كتابه والتي تحمل الاجابات على هذه التساؤلات.

اهمية البحث

يندرج اهمية البحث من خلال جوانب عدة والتي من اهمها ما تم ذكره من قبل محمد قطب في مقدمة كتابه عند الحديث عن الغفلة التي اعترى عن وجود منهج متكامل يعالج مناحي الحياة كافة، وان هذا المنهج الذي غفل عنه المسلمون قبل غيرهم يحمل في طياته معالجات جذرية لمشكلات تفاقمت عبر العصور، وبات المسلمون يبحثون عن زوايا للأختباء من تهكمات الاخرين على ادعاءات لا صحة لها او ليس لها وجود اصلا. كما انه يزيد البحث اهمية من خلال تناول البحث العلاجات من جوانب عدة وعدم اقتصارها في زاوية قاصرة او خندق وحيد منفرد. وهذه المعالجات في التربية والتعليم وتعديل السلوك تحمل ابعاده النظرية وتطبيقاتها العملية، ويغني عن تاؤيلات كثيرة (للمتهمين او المدافعين عن نظرة الاسلام والقرآن في التربية) حين يضع المنهج المتكامل امام الجميع.

هدف البحث

يهدف البحث الحالي الى وضع مختصر لكتاب مناهج التربية الاسلامية لمحمد قطب والمؤلفة من جزئين وذلك للتعريف بالكتاب من جهة، ومن جهة اخرى جعله في متناول يدي الباحثين الذين لم يعلموا او لم يتمكنوا من الحصول على الكتاب. والمختصر الذي قد يمثل تلخيص ما يزيد على خمسين صفحة في صفحة واحدة مما يجعل الباحثين في سعة من امرهم بعد قراءة المختصر ان يتوقفوا على الاصل او لا حسب حاجتهم للأطلاع او التحليل او ما شابه ذلك.

حدود البحث

يقتصر البحث الحث الحالي على تقديم مختصر لكتاب (منهاج التربية في الاسلام) للأستاذ الدكتور محمد قطب، والذي يتناول فيه ابعاد التربية والاصلاح للفرد والمجتمع تنظيرا وتطبيقا.

منهجية البحث

يتبع البحث الحالي تحليل المحتوى منهجا للبحث من خلال تناوله لكتاب واحد فقط في التربية والتعليم، وكان اختيار هذا الكتاب متعمدا (وليس عشوائيا) لكونه لاقى اقبالا في اوساط عالمية في الدراسات الجامعية الاولية والعليا ولم تحظ في العالم العربي ما حظيت به من اقبال في خارجه، وكانت تقنية الاختصار سبيلا انتهجه الباحث لإعطاء الصورة عن المراد دون الولوج في جميع الادلة والشواهد التي ساقها الكاتب، بل اكتفى الباحث بإيراد نموذج واحد في سياق الاستدلال قاصدا بذلك اعطاء صورة او فكرة يستطيع المتلقي في الاستزادة من خلال الرجوع الى المصدر.

منهج التربية في الاسلام من منظور محمد قطب

أثار الكاتب في مقدمة كتابه أن الامة غفلت عن وجود منهاج رباني متكامل في التربية يمكن الاعتماد عليه، وان هذا المنهاج شامل وكامل ومفصل يثيره القرآن من خلال تساؤلاته التي يطرحها ويشكل الابهام والغموض لدى المتلقي مما يدفعه للبحث والتحري، وبذلك يوجه النفس ويعودها على الصلاح بعد البحث الذي يوصله الى الحقيقة. وان التقى هذا المنهاج ببعض المناهج الاخرى الا ان تفرده في توجيه كل دقائق النفس ومناح الحياة وكل فكرة او شعور يوضح عن اسباب ظهور تلك الامة العجيبة في غابر الزمان والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها في الأرض، تفتح وتغزو لنشر النور، وتعمر وتبني، وتقيم مثلًا أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد. الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فبلغت الذرى. يستوجب الوقف للنظر مليا عن اسباب وطريقة تلك النهوض.

الوسائل والأهداف

يتوقف الكاتب في الجدلية التي تثير اغلب المجتمعات بالاهتمام للوسائل او الاهداف مقتصرين على احدهما دون الاخرى وهذا من دواعي الانحراف عن جادة الصواب، كما انه يبين تغيير الوسائل عبر العصور والامم ومن جيل الى جيل، وان الوسيلة الواحدة يمكن أن تخدم أهدافًا عدة، أو لا تخدم هدفًا على الإطلاق! كالرياضة والرسم والموسيقى والغناء او استخدام الفن القصصي في التربية والتعليم وغيرها الكيثر فيمكن ان يحققوا اهداف كثيرة او لا يحققون اي هدف اصلا. وهكذا كثير من الوسائل، لا تحكم بذاتها على منهج، ولا تبين الطريق. ولكن هذا ليس معناه أن تهمل الوسائل وتسقط من الحساب. فالوسائل هي ألاداة الوحيدة لتحقيق ما نؤمن به من الأهداف، وينبغي العناية الكاملة بها، والتدقيق في بحثها واختيارها، إذ الوسيلة الفاسدة تضيع الهدف الصالح وتحيد عن الطريق. ومنهج التربية الإسلامية منهج متميز متفرد في وسائله وأهدافه بشكل ظاهر يلفت النظر، ويدعو إلى التفكر في مصدر هذه التربية التي تفردت على مدار التاريخ.

فبينما تلتقي مناهج التربية الأرضية كلها تقريبًا على أهداف متشابه، وإن اختلفت في وسائل تحقيقها متأثرة بالبيئة والظروف والمتغييرات الاخرى، نجد الإسلام ومنذ البدء مفترقًا عنها في هذا الهدف، مغايرا لها في الاتجاه. تلتقي مناهج التربية الأرضية على أن هدف التربية هو إعداد "المواطن الصالح." وتختلف الأمم بعد ذلك في تصور هذا المواطن وتحديد صفاته. فقد يكون هو الجندي الشاكي السلاح، المتأهب في كل لحظة للوثوب سواء للعدوان أو لرد العدوان. وقد يكون هو الرجل الطيب المسالم الذي لا يحب الاعتداء على أحد, وقد يكون هو الناسك المتعبد الذي يهجر الحياة

الدنيا وينصرف عن صراع الأرض الكريه. وقد يكون هو العاشق لوطنه. وقد يكون.. وقد يكون.. ولكنها تشترك كلها في شيء واحد، في إعداد "المواطن الصالح."

أما الإسلام فلا يحصر نفسه في تلك الحدود الضيقة والزاوية الحرجة، ولا يسعى لإعداد "المواطن" الصالح، وإنما يسعى لتحقيق هدف أكبر وأشمل، هو إعداد "الإنسان" الصالح. الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل. الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه. الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو "مواطن" في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان. ذلك باختصار هو الأساس الذي يقوم عليه منهج التربية الإسلامية، وهي كلها مستمدة من حقيقة واحدة ، حقيقة الخالق الذي ترجع إليه جميع الأمور.

خصائص المنهج الإسلامي

الإسلام في تربيته يعالج الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئًا ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض. إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئًا من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئًا ليس في تركيبها الأصيل. ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح. وهناك نظم آمنت بالجانب المحسوس فقط من الإنسان والحياة. ونظم آمنت بالجانب الروحي فقط من الإنسان. وكلاهما انحراف عن السبيل. وكلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التي أرادها له خالقه يوم قال: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً". والإسلام يجمع هذه وتلك، يؤمن من الكائن الإنساني بما تدركه الحواس، وبما يقع خارج نطاق الحواس.

يؤمن بكيانه المادي المحسوس وأنه قبضة من طين الأرض: "إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِين ". يؤمن بما لهذا الكيان المحسوس من مطالب، ويؤمن بما فيه من طاقات. ويعترف بهذا الكيان اعترافًا كاملًا لا يغض شيئًا من قيمته، ولا يهدر شيئًا من طاقاته. يستجيب لحاجاته ومطالبه، فيوفر له المأكل والملبس والمسكن والجنس، ونصيبه من المتاع. وفي الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحي للإنسان، يؤمن بأن فيه نفخة من روح الله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ".

الروح والعقل والجسم كلها كيان واحد ممتزج مترابط اسمه الإنسان. ولقد يغلب أحد جوانب الكيان في لحظة وتتوارى بقية الجوانب أو تنحسر. ولكنها لا تنفصل قط وإلا فإنها تموت! فالتوقيع على أوتار النفس كلها، مجتمعة مترابطة، يضمن شيئين معًا وفي آن واحد ، استغلال طاقات الإنسان كلها، فلا تهدر منها طاقة واحدة يمكن أن ينتفع بها الإنسان في عمارة الأرض والخلافة عن الله. والأمر الثاني: أن استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازنًا في داخل النفس وواقع الحياة على حد سواء.

والتوازن – هو سمة من سمات الإنسان الصالح– وبمعنى أوسع يشمل كل نشاط الإنسان. " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ". وسطًا في كل شيء.

منهج العبادة

في المثل الشائع بين اقوام عدة (لا خير في دين لا عبادة فيه) فمن أبرز سمات المنهج الإسلامي أنه منهج عبادة، ولكن العبادة في هذا المنهج تحتاج إلى توضيح. فهي ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة. وإنما هي أعمق دلالة من ذلك جدًّا. إنها العبودية لله وحده. والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله. ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله. وهذه الصلة في الحقيقة هي منهج التربية كله، تتفرع منه جميع التفريعات وتعود في النهاية كلها إليه. وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة.. ما دامت وجهته إلى الله. والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة جميعها وبكل تفاصيلها.

فهي لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد. و هذا هو القصد من الآية الكريمة "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ". وإلا فما قيمة لحظات عابرة لا تكاد تترك لها أثرًا في مجمل حياة الناس.

تربية الروح

إن الابهام والغموض الذي احاط بالروح وجعل الانسان عاجزا عن ادراك كنهها جعل الماديين في العصور الحديثة يجاهلونها الى حد الانكار في وجودها وخاصة عند المتطرفين منهم. فذهب البعض ان لا وجود لما لا نراه او لا تتعامل معه حواسنا، والروح طاقة مجهولة مبهمة غامضة محجوبة عن الادراك، ولكن العقول التي تعقل الحقائق تعلم بوجودها يقينا، واذا غلب ظننا ان عمليتا الادراك والتذكر (محسوسة) لذلك نؤمن بوجودها فقد جانبنا الصواب، فالحقيقة التي لا مناص منها اننا نستدل عليهما من اثارهما وليس شيئا آخر. ووضوح الاحساس بتلك العمليتين (الادراك والتذكر) يغرينا بالظن الخاطئ اننا نحسها او لربما حتى نلمسها من شدة صدق اثارهما وقوتها.

وإنما نحن ندرك نتائجها، ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذي أغرانا بذلك الظن الخاطئ، كما أنه هو الذي أدخل في وهمنا أننا "نعرف" كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر! أما الحقيقة فهي أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك، ونكتفي منهما بالنتائج التي تدركها الحواس!

والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح. فالحق أن الطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته، وأعظمها، وأشدها اتصالًا بحقائق الوجود. طاقة الجسم محدودة بكيانه المادي وبما تدركه الحواس . وطاقة العقل أكثر طلاقة، ولكنها محدودة بما يعقل. محدودة بالزمان والمكان. بالبدء والانتهاء. ومحكومة بالفناء.

وطاقة الروح –وحدها– في كيان الإنسان، هي التي لا تعرف الحدود والقيود. لا تعرف الزمان والمكان. لا تعرف البداية والنهاية. لا تعرف الفناء.. هي وحدها التي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل. هي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي.. تملك الاتصال بالله. وطريقة الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور. ومع ذلك فلا يريدهم على المستحيل. وهو يعلم أن الطلاقة الدائمة الكاملة بالنسبة للبشر مستحيل فقبضة الطين لها ثقلها. ودفعة الشهوة لها قوة. وثقلة المادة لها ضغط. ومن ثم يقول: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ" . ويقول: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا".

تربية العقل

أن منهج الإسلام يستمد كل ألوان التربية من القاعدة الروحية، كأنما يستنبتها نباتًا من "تربة" الروح، فتخرج مشعة بإشعاعها، والإسلام دين الفطرة فهو يحترم الطاقات البشرية كلها، ويعدها هبة الله المنعم سبحانه، ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة. لا يبخسها قدرها، ولا يعطيها فوق قيمتها. ويسخرها جميعًا إلى أقصى طاقتها لفائدة الانسان وما حوله من مخلوقات. ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها، ويربيها لتتجه في طريق الخير. فيبدأ الإسلام التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي، فيصون الطاقة العقلية أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها.

وهو يعطي الإنسان نصيبه من هذه الغيبيات، بالقدر الذي يلبي ميله او حاجاته للمجهول. ولكنه يكل أمر ذلك إلى الروح، فهي القادرة على ذلك المزودة بوسائل الوصول. أما العقل فوسيلته إلى الله وإلى معرفة الحق، هي تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل، ومن ثم يحدد الإسلام مجاله بهذا النطاق، ولا يتركه يغرق في التيه الذي غرقت فيه الفلسفة من قبل واللاهوتيات، فلم تصل إلى شيء حقيقي يستحق ما بذل فيها من جهد؛ إن لم تكن قد غبشت مرآة الفكر البشري، وشتتت ما ينعكس عليها من أضواء .

يوجه الإسلام الطاقة العقلية أول ما يوجهها إلى التأمل في حكمة الله وتدبيره. وهو أمر أقرب ما يكون إلى مملكة الروح. الله الخالق المدبر الذي خلق السموات والأرض بالحق، ويدبرها بالحق.. ذلك موضع التأمل. يكرر القرآن هذه الحقيقة في كثير من آياته: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ"[1]. "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ"[2].

هذا المعنى عميق جدًّا في بناء الفكرة الإسلامية. والقرآن لا يزال يلح في توكيده، والتوقيع على الحس البشري ليتنبه إليه. إنه أساس العقيدة الذي تنشأ عليه الحياة. هذه الدعوة المتكررة تلفت النظر ولا شك. إنها دعوة تلح على الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل الفناء والبقاء في

[1] سورة الانعام الاية 73.
[2] سورة ابراهيم الاية 19.

المجتمعات، دراسة واعية متفتحة بصيرة مُعْتَبَرة. إنها ليست دعوة "لحفظ" التأريخ من أجل الامتحان فيه آخر العام! وليست دعوة للتفكه بدراسة التاريخ والتظاهر بالعلم! إنها دعوة للنظر والاعتبار. دعوة للاستفادة من تجارب البشرية السابقة. دعوة ذات منهج مرسوم.

تربية الجسم

حين يتم الحديث عن الجسم في مجال التربية فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب. وإنما تلك الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس. طاقة الدوافع الفطرية والنزعات والانفعالات.. طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاقها.

والإسلام في تربيته للجسم يراعي الأمرين معًا من حيث هو جسم، ليصل منه إلى الغاية النفسية المرتبطة به. فحين يقول الرسول الكريم: "إن لبدنك عليك حقًّا": من إطعام وإراحة وتنظيف وتقويم، فهو يدعو إلى هذه العناية الشاملة بالجسم كله، ليأخذ "الإنسان" بنصيب من المتاع الحسي الطيب الحلال الذي أمر الله به في توجيهاته الكثيرة: "وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"[3] "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ[4]" أي لغاية نفسية مقامة على قاعدة جسمية؛ ثم ليوفر الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق أهداف الحياة، وهي أهداف تشمل كل كيان الإنسان.

وتوجيهات الإسلام في هذا الباب مختلفة. فالرماية والفروسية هي جزء من منهج التربية الإسلامية تنص عليه أحاديث الرسول ﷺ،

وكذلك السعي والهرولة في شعائر الحج. كلها تدريب لعضلات الجسم ووشائجه لتربية القوة فيه والسلامة والتمكن. فيدعو إلى الاستمتاع بالطيبات منها والإقبال عليها: "كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ"[5]. "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ "[6] "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ"[7].بل ويجعل عليها أجرًا!

والصلاة بصفة خاصة ملحوظ فيها ذلك الارتباط. فالوضوء عملية جسمية –وإن كانت له معان روحية– قصد بها تطهير البدن قبل الدخول في الصلاة. والصلاة ذاتها حركة جسم في ذات الوقت التي هي فيه يقظة فكر وطلاقة روح. ويظل الجسم مشاركًا للعقل والروح في أثناء الصلاة، يشارك بالحركة والخشوع. ويشارك بالمحافظة على الطهارة، وإلا فسدت الصلاة.

والصيام عبادة نفسية جسمية في آن. وكذلك العبادة بمعناها الواسع.. عبادة "العمل" إنها مشاركة جسمية في التوجه إلى الله، ولكن الإسلام وهو يحترم الطاقة الجسمية احترامًا كاملًا، لا يتركها على

---

[3] سورة القصص الاية 77.
[4] سورة الاعراف الاية 32.
[5] سورة سبأ الاية 15.
[6] سورة الاعراف الاية 31.
[7] سورة البقرة االاية 223.

حالها، ولا يطلق لها العنان! إنه ينظمها ويضبط منصرفاتها. لأنها إذا تركت وشأنها لا تقف عند حد، وتدمر الكيان. الذي يسرف في الطعام لا يشبع كما يبدو لأول وهلة. بل يصيبه النهم فلا يقنع ولا يستريح. والذي يسرف في إمتاع الجسم بالراحة لا يشعر بمزيد من الراحة كما يبدو لأول وهلة. بل يصيبه الكسل والترهل، ويعجز بعد قليل عن الحركة النشيطة القادرة، والذي يسرف في الجنس لا يأخذ مزيدًا من المتاع كما يبدو لأول وهلة. بل يصيبه النهم الجنسي فلا يكتفي ولا يشبعوهكذا تفسد المتعة الأولى وتنقلب إلى هم دائم مقيم.

خطوط متقابلة في النفس البشرية

إن هذه النفس البشرية لطالما حيرت العلماء ولازالت كذلك، ولأجل هذا كان للإسلام دوره في التشبيك بين كل من الروح والعقل والجسم بطريقة عجيبة، ليشكل من خلالهم سنفونيته الخالدة بصورة متناسقة وملفتة للانتباه. ولعل النفس البشرية في مسار حياتها تعيش بين ثنائيات، فالمسلم يتقلب بين خوف ورجاء، حب وكره، خيال وإيمان بالواقع، تنقل بين المدركات المعنوية والحسية، فتسليم للغيبيات ولما يفوق إدراك عقله، ساعيا في تطوير مجتمعه وفق ضوابط المنهج الرباني، ، فاعلا ضمن إطار خدمات المجتمع المدني متطوعا فيها، محققا بذلك شروط الخلافة في الأرض، إذن هي خيوط دقيقة تجتمع كلها لتؤلف حياة المسلم، لتكون تلك الثنائيات التي رافقت حياته الطريق الذي يوصله لبر الأمان وتربطه مع معطيات الحياة ومتطلباتها المتعددة والمختلفة، لتصبح وقوده الإيماني وهو ما سنراه ببحثنا في أسس التربية الإسلامية.

الخوف والرجاء

إن حياة المسلم في علاقته بالله عز وجل تترنح بين خوف أحيانا ورجاء أحايين أخرى، فهو بين هذا وذاك سائر في طريقه إلى الله عز وجل، فمنذ ولادته وهو يعيش بين ثنائيات تخلق نوعا من التوازن الذي يعبر عن بشريته، فهو يخاف صغيرا فيلجأ لحضن أمه الدافئ طلبا للأمان، لتكبر هذه الثنائية معه فيظهر الخوف أحيانا عليه، وتعمه الطمأنينة والسكينة أحايين أخرى لتشكل هذه الثنائية وجدانه وتحفظ استقراره النفسي.

والمسلم أثناء اختلاطه بالناس يكبر معه هذا الخيط الرفيع ليوجه مسار حياته، متخذا المنهج السليم أو بمصطلح آخر يحدد أيديولوجيته المعتمدة في طريقة تفكيره لترسم سلوكياته بين خوف من المجهول ورجاء تحقيق ما يصبو إليه، فتراه يخاف الفقر فيتوجه للحصول على المال لكفاية نفسه ومن يعول.

كما لا يخاف سلطانا ولا يخشى ظالما فتراه يقتحم الخطوب لكن بحذر، واضعا له خطة يسير عليها نحو تحقيق أهدافه متحررا من جميع الأوهام الزائفة، ساعيا في طريقه ممتلكا لزمام أمره وحياته، لتوجه هذه الثنائية بوصلته دون ضغوط قد تعكر عليه صفو حياته.

ولعل هذه هي التربية الصحيحة للفرد المسلم والتي تبعده عن الانحراف متخذا وضعه الصحيح بين خوف ورجاء، فلا إفراط في الخوف أو في الرجاء، ليعيش واقعه بكل تفاصيله فلا يبدد طاقته النفسية جريا وراء الأوهام أو خوفا زائدا من الموت لقوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ"[8] أما في جانب الرزق فشعار المؤمن قول الله: "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ".[9] فهو بعد السعي يستقبل أقدار الله بنفس راضية لما أعطى وما منع فكل قضاء الله خير سواء في المنع أو العطاء متخذا قول الله تعالى: "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ".[10] شعارا له، لكن ذلك لا يمنع من وجود الخوف الطبيعي الذي يعبر عن إنسانيته.

إن الخوف في الإنسان ليس مذموما، لأنه مجرد قوة مسخرة من الله عز وجل فهو لا ينفع ولا يضر إلا بأمر الله، فالخوف الحقيقي هو الخوف من مالك هذه القوة وهو الأولى بالخوف منه عز وجل ودوما دون إفراط ولا تفريط متخذا في ذلك شعاره من قوله عز وجل: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".[11]

فالخوف إذن يصبغ حياة المسلم ليضعه على الطريق المستقيم بالقدر الذي تطيقه نفسه، والرجاء كذلك خصلة لا يمكن الاستغناء عنها في حياتنا، والإسلام في ذلك ينتهج نظاما معتدلا ليصل إلى تحقيق التوازن في حياتنا، وننطلق بالرجاء إلى العمل الميداني.

إن الإنسان في هذا الوجود يرجو تحقق كثير من الأهداف من: مال وبنين، واستمتاع بملذات الدنيا سعيا لتحقيق الجاه والعزة والسلطان...إلى آخر أنواع الملذات الجسدية والنفسية، والإسلام –كما ذكرنا سابقا– لا يحرم الاستمتاع ولا يدعو المسلم إلى اعتزال الدنيا والانصراف عنها، فهو بذلك يخالف طبيعته، فمن رحمة الله بالإنسان أن دعاه إلى الاستمتاع بهذه الملاذ بل يستنكر تحريم ذلك وهو ديدن العديد من الجهات المتطرفة التي لا تفقه الإسلام، لكن هذا لا يعني أن نتخذ طريق الحرام لنا مسلكا، وإنما الاعتدال هو الأساس.

---

[8] سورة ق الاية 43.
[9] سورة يونس الاية 31.
[10] سورة البقرة الاية 216.
[11] سورة ال عمران الاية 175.

الحب والكره

ثنائية أخرى تبرز إلى واجهة حياة المسلم ألا وهما خصلتي الحب والكره فالإنسان مجبول على حب بعض الاشياء مصداقا لقوله تعالى: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ".[12] وهو في نفس الوقت يكره ما يعيق وصوله لتحقيق ملذاته، والإسلام في هذا الصدد يهذب النفس ويوجهها لتحقيق التوازن بين الحب والكره وفق ضوابط شرعية.

ولعل الإسلام حدد مسار الحب والكره لينتهي في الأخير إلى التمتع بمزايا الحب وفي هذا يقول تعالى: "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ".[13] فقد خلق الله الإنسان في أبهى صوره وصيره ليكون خليفته في الأرض فينفق من ماله امتثالا لقول الله عز وجل: "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ".[14]

أما الكره فهو ينتج الظلم بين البشر لذلك يحذر الله منه قائلا: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا". كما ينبذ الله السكوت عن التعرض للظلم لأنه ظلم للنفس فيقول: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ"[15].

كما أن التسبب في فتنة الناس حذر منه الإسلام في مواضع كثيرة لأنه يهدم أواصر المجتمع الإسلامي ومنها ما ذكره سبحانه في قوله: "وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ"[16] والفواحش الظاهرة والباطنية منها وما باتت تنخر المجتمعات خاصة في عصرنا اليوم كظاهرة الزنا والعياذ بالله وفي هذا يقول الله عز وجل: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"[17].

الواقع والخيال

ثنائية أخرى تبرز في حياة المسلم وهي الواقع والخيال بما تملكه من روافد تشكل كيانه ولعل الإسلام رسم في ذلك منهجا وسطا يبعد المسلم عن الركون إلى معوقات الواقع أو الانجراف وراء الخيال الذي يدخل النفس في متاهات الأوهام خاصة في عصرنا هذا والذي يعج بالتيارات المنحرفة نتيجة لعدة تراكمات أودت بالإنسان إلى تجنب مواجهة الواقع، والإسلام في هذا يكسب المسلم نوعا من الطاقة الربانية التي تقيه مهلكات هذا العصر، ولذلك ترى المسلم يضرب في الأرض ساعيا لإصلاحها مستعملا في ذلك طاقة الخيال لتجميل مظهر البيئة مثلا وهو ما تحقق بشكل كبير في

---

[12] سورة العاديات الاية 8.
[13] سورة التغابن الاية 3.
[14] سورة آل عمران الاية 135.
([15]) سورة البقرة (194).
([16]) سورة البقرة (191).
([17]) سورة النور (2).

العهد الأندلسي الذي شهد انتشارا رهيبا للمساحات الخضراء، وما كان ذلك ليكون لولا طاقة الخيال عند المسلم.

إن المسلم في هذا الموضوع يشغل نفسه بتحقيق جمال الآخرة على الأرض مستلهما رونق الجنة لقول رسولنا الكريم: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!" وهذا ما أشاد به المستشرقون بشكل كبير متغنين بجمال قوة الخيال عند المسلمين لعل على رأسهم المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه التي أفنت حياتها للحديث عن مدى أهمية الدور الذي لعبه المسلمين في نهضة أوروبا في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب، فما كان هذا الاحتفاء الكبير من هذه المستشرقة لولا أن رأت آثر قوة الخيال عند المسلمين ومدى سعيهم لتجسيد جنة الله في الأرض إصلاحا للنفوس وللأرض.

الحسية والمعنوية

لقد دخلت الذات الإنسانية مع حلول القرن الواحد والعشرون حالة من التدهور الكبير نتيجة طغيان المادة وتراجع القيم الإنسانية، فانغمس الإنسان خاصة الغربي منه في الملذات الحسية متناسيا نتيجة شيوع قيم الحداثة وحلول الآلة محل الإنسان ليتناسى الإنسان تحقيق التوازن بين الأمور الحسية والمعنوية فهو أمر ضروري في الحياة.

إن الطاقة المعنوية خاصية إنسانية فريدة تميز الإنسان عن الحيوان فقد حث الإسلام على إدراك معالم الجمال بالدنيا وشجع على الاستمتاع بالفن المباح الذي يطرب النفس ويبهجها، لكن جاهلية القرن الواحد والعشرين بداعي الواقعية انغمست في الملذات الحسية وانحرفت عن الفهم الصحيح لقيم الفن فأهملت هذه الطاقة الربانية وتم تعطيلها فصرنا نرى المجون والخلاعة وانتشر ما يعرف بالفيديو كليب نتيجة تعالي صيحات سرعة الاستهلاك في الاستمتاع بملذات الدنيا الحسية، وصارت بذلك المرأة سلعة رخيصة يتم التسويق لها مثلها مثل السلعة، ليتخلى الإنسان بذلك عن إنسانيته منحدرا نحو الحيوانية.

لقد منح الإسلام للإنسان حق تفجير طاقاته الإبداعية مسايرة لفطرة الإنسان التي جبل عليها لإبعاده عن الجاهلية التي تضرب باطنابها المجتمعات المغرقة في المجون، فقد جاء الإسلام، ليقضي على هذه الجاهلية التي تظهر بين الحين والآخر في ثوب جديد، ليمنح هذه النفس سبل تطهرها ومن ثم ارتقائها في السير إلى الله، فالإسلام دائما يدفع النفس إلى الاستقامة من خلال تلك القيم التي تتماشى مع متطلبات العصر.

ما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس

إن هذا الكون متعدد العوالم والمسلم مطالب بالإيمان بما لحواسه القدرة على إدراكه وما لا يمكن له إدراكه بحواسه المجردة. هذه المنطلقات الإيمانية تكسب الفرد المسلم طاقة إيمانية رهيبة فتتغذى روحه على هذه المعاني الإيمانية، فالحواس مشتركة بين الإنسان والحيوان لكن الإنسان اصطفاه الله للإيمان بالعوالم الغيبية التي تعجز حواسه عن إدراكها.

وما كان ذلك ليتحقق لو لا تلك التغذية الإيمانية المبثوثة في داخله فيرى الكون غير ما يراه عليه غيره مصداقا لقوله تعالى: "اللَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا".[18] "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ"[19]. وهي دعوة صريحة من الله عز وجل للتفكر في ملكوته والسعي لاكتشاف هذا الكون وسبر أغواره والبحث في مكنوناته، وهو ما يزيد أكثر من الطاقة الإيمانية للمسلم فترتقي روحه أكثر في هذه العوالم الربانية ليرتفع معه الإيمان بالغيبيات.

الفردية والجماعية

لطالما شغلت ثنائية الفردية والجماعية العلماء والفلسفة عبر التاريخ فهاهو الفيلسوف أرسطو كان يشجع الفردية في دين كان أستاذه أفلاطون يحبذ النظام الجماعي، أما بحديثنا عن الإسلام إن النظام الاجتماعي الذي أقامه الإسلام نظام متوازن متكامل بين تشجيع للروح الجماعية من ناحية وإطلاق الطاقات الإبداعية للأفراد من ناحية أخرى فالمسلم كائن اجتماعي بطبعه يختلط بأصناف المجتمع المختلفة.

إن الفرد ما هو إلا جزء من ذلك النسيج العظيم للجماعات التي تشكل فيما بعد المجتمع، فكلاهما يكملان بعضيهما البعض ويؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به، أما مستويات الخلل التي تحدث في هذا النسيج عادة تنجم عن عمليات الاعتداء الصارخة على ثقافات الآخرين، وهو ما أنتج حركات عنصرية متطرفة أصبحت محط أنظار مختلف وسائل الإعلام العالمية.

ولعل في هذا الموضع تبرز حكمة الإسلام الكبيرة في حفظ حقوق الأقليات ودمجهم داخل نسيج المجتمع ككل ليصبحوا كتلة واحدة متكاملة امتثالا لقوله تعالى: "صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ".[20] ولعل هذا ما سعى إليه الإسلام ودعا إليه منذ ما يقارب الأربعة عشر قرن من الزمن، فبذلك يصبح عدد الأفراد ليسوا مجرد أعداد مصفوفة بل أفرادا فاعلين في المجتمع، فالفرد محور أساسي لنمو المجتمع والمجتمع لا قيمة له من دون اتحاد الأفراد.

([18]) سورة الرعد (2).
([19]) سورة الغاشية (17-20).
([20]) سورة الصف (4).

إن كل فرد داخل المجتمع كيان مستقل بذاته لكنه في نفس الوقت مسئول عن تصرفاته، والإسلام في هذا الصدد يذكر آيات كثيرة منها: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة".[21] "لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا".[22] "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ".[23]

إذن لقد فصل الإسلام في هذه الإشكال التي طالما حير العلماء والفلاسفة عبر التاريخ وانشئوا له نظريات ومدارس قائمة بذاتها شغلت الوسط الثقافي على مدى ردح من الزمن، لتأتي حكمة الإسلام فاصلة في الأمر بالتوفيق بينهما من خلال إطلاق الطاقات الإبداعية الكامنة داخل الأفراد لكن مع تحديد مسؤولياتهم داخل النسيج الاجتماعي، ولعل هذه هي الفطرة التي جبل عليها الإنسان منذ بداية الخلق، فالله عز وجل خلق آدم لكن لم يخلقه فردا بل خلق له حواء لتؤنسه في وحشته لتأتي بعدها الجماعات وفودا.

السلبية والإيجابية

إن الانحراف وليد الفراغ والمفاهيم السلبية المغلوطة لذلك يحذر الإسلام منه،وقد تنقلب السلبية إلى عبودية ذليلة لفرد أو قيمة أو عادة أو تقليد، مهما يكن قيمًا في ذاته وواجب الاحترام، فإن العبودية له مسخ للكيان البشري وتشويهه. وهي في الوقت ذاته إضاعة للضمان الوحيد لتقويم الفساد في الأرض. وهو الرقابة الواعية على الناس والقيم والعادات والتقاليد. لذلك يوصي الله عز جل بضرورة أن نفقه القرآن ونفهمه الفهم الصحيح فيقول: "وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا".[24] والتقوى بدورها تخلق شتى أنواع الخير والفاعلية بالمجتمع فترى المسلم كالنملة يسعى بشتى الوسائل الربانية لإصلاح الأرض والتخلص من تلك السلبيات.

لأجل ذلك وضع الإسلام مسارا للمسلم يعلي من قيمته من خلال فاعليته الايجابية داخل المجتمع لإثبات ذاته، فهو في طلبه لرزقه متوكل على الله موقن بكل ايجابية أن رزقه عند الله وسيؤتيه إياه ممتثلا لقوله: "ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ"[25]. ومن ثم فعلاقة المسلم بربه هي التسليم لأقداره بلا مراجعة ولا سؤال ولا اعتراض، موقن بأن الايجابية وليدة الإيمان المطلق في خير ما عند الله عز وجل لذلك شعاره دوما هو اليقين بكل طمأنينة قول الله تعالى: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ".[26]

([21]) سورة المدثر (38).
([22]) سورة البقرة (48).
([23]) سورة القيامة (14-15).
([24]) سورة الفرقان (74).
([25]) سورة الشورى (10).
([26]) سورة آل عمران (31).

وهو تسليم متولد عن تلك التربية الروحية التي تكون دوما صمام أمام تبعده عن ارتياد الأفكار السلبية التي تجعله عبدا لكأس أو إدمان للمخدرات أو شهوة جنسية تودي به إلى مهالك الدمار الصحي والنفسي، لذلك وضع الإسلام للمسلم وسائل عدة لتهذيب نفسه.

من وسائل التربية

اتخذ الإسلام في تربيته للأمة وسائل عدة منها: التربية بالقدوة تليها التربية بالموعظة والتربية من خلال القصة وسرد أحداثها إلى جانب التربية بتفريغ الطاقات من خلال الرياضة التي لها دور كبير في تهذيب النفس، والتربية بالعقوبة التي تعتبر آخر المراحل التربوية.

التربية بالقدوة

سئلت عائشة رضي الله عنها ذات يوم، عن أخلاق رسول الله ﷺ وكيف كان يتعامل معها، فقالت قولا عظيما رغم إيجازه: كان خلقه القرآن!، إجابة في غاية الدقة اختصرت فيه ما لو بقيت حياتها كلها تتكلم عنه لما جاءت به على هذه الشاكلة كان خلقه القرآن! كان الترجمة الفعلية لتعاليم القرآن.. ومن ثم كان –كالقرآن– قوة ربانية تمشي على الأرض. قوة من صنع الله، تتكامل فيها جميع النواميس الكونية، وجميع القوى الخارقة للعادة، ولتجتمع كلها في شخص الرسول الأعظم محمد ﷺ فلا نتعجب إذن في اعتراف أعدائه بأمانته وصدقه وأخلاقه العالية في الحرب قبل السلم.

القدوة إذن أحد أكثر وسائل التربية تأثيرا على الإنسان فهي التي تختصر لنا طريق النجاح وتجنبنا العديد من المهالك التي قد تؤدي إلى ما لا يحمد عقباها، لكن الإسلام ولله الحمد أوجد لنا رسول كريم حتى نتبعه ونقتفي أثره، فلكي يعرف الناس الحق من الباطل لابد أن يعرف الإنسان أنه حق من خلال قدوته في الحياة الذي يحمل ذلك المنهج الرباني، ولعل الله عز وجل ومن رحمته بنا أمرنا بضرورة إتباع الرسول الكريم فقال: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة"[27]. ووضح في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الرباني تلك الصورة الحية الصالحة لكل زمان ومكان والتي جعلت الكتاب والمفكرين غير المسلمين يشيدون بأخلاقه وعظمته الكبيرة.

التربية بالموعظة

إن للكلمة أثرها السحري على النفس البشرية ولذلك كان اللسان أكثر ما يدخل النار بسببه فخطورته قد تفوق خطورة السيف لذلك يوصي علماء التربية على ضرورة اتخاذ التربية بالموعظة وسيلة لتهذيب النفس خاصة الأطفال على القيم الحميدة ولهذا جاء القرآن الكريم مليئا بالمواعظ والعبر ليرسم حياة المسلم منذ خروجه لهذه الدنيا إلى أن يلقى الله عز وجل.

([27]) سورة الأحزاب (21).

وليزداد أثر الموعظة في النفس لابد أن يكون إلى جانبها قدوة أمامه ليحتذي أثره ويتبع طريقه والإسلام كفل للمسلم ذلك من خلال رسولنا الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام معلم البشرية الذي جاء رحمة للعالمين والذين كان أكثر الناس حكمة في كيفية إرشاد ونصح الناس ووعظهم فكان بحق رحمة للعالمين متمما للأخلاق ضاربا بذلك أجمل المواقف الحياتية التي تعلما الرحمة بالناس وحسن معاملتهم خاصة العصاة حتى يهتدوا إلى الطريق المستقيم ويبتعدوا عن غضب الله عز وجل، ولعل المواقف في هذا الباب كثيرة ومتنوعة كحادثة شارب الخمر مثلا.

ولهذا تتعلق النفوس المؤمنة بالشوق إلى رؤية هذا القدوة الحكيم الذي من شدة تأثر الناس به كتب ستيفن كوفي كتابه الخالدون مائة أعظمهم محمد ليتصدر الرسول الكريم المرتبة الأولى في مدى تأثيره على جميع فئات وأصناف المجتمع، وما كان ذلك ليكون لولا حكمته ﷺ في طريقة وعظه وإرشاده للناس.

التربية بالعقوبة

صحيح أن بعض المدارس التربوية تدعو إلى تجنب هذا النوع من الأساليب التربوية لكن في بعض الأحيان يحتاج الأمر إلى الحسم، فللشدة كذلك دورها التربوي حتى لا يكون الجيل رخو هش لا يمكننا الاعتماد عليه.

إن العقوبة كما يقال هي آخر الكي فهناك من الشخصيات من ترتدع بالموعظة الحسنة فلا حاجة لها بالعقوبة ولهذا يدعو المختصين الأم إلى تجنبها قدر المستطاع خاصة وأن أغلب الأمهات غير العارفات بفنون التربية يلجئن مباشرة للعقوبة ظنا منهن أنها الطريقة الأنجع لكنهن لا يعرفن أن ذلك يزيد الطين بلة.

لأجل هذا اعتبر الإسلام العقوبة آخر الكي كما يقال، فللموعظة أثرها الأكبر على النفس، وهذا ما نتلمسه في قول تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ".[28] ولذلك أمرنا المولى في موضع ثان بضرورة التحلي بالحكمة في دعوتنا للآخرين فقال: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"[29].

أمام هذه التعاليم العظيمة إلا أن هناك نفوسا لا ترتدع إلا بالعقوبة ولذلك يستعمل القرآن أحيانا أسلوب الزجر من مثل قوله تعالى: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ".[30] وفي مواضع أخرى يهدد بشدة كمواضع القذف في أعراض الناس مثلما حصل في حادثة الإفك وفي هذا

([28]) سورة فصلت (33-34).
([29]) سورة النحل (125).
([30]) سورة الحديد (16).

يقول تعالى: "وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ".

التربية بالقصة

تعتبر القصة أحد أبرز فنون التربية التي يوصي بها المختصون لتهذيب النفس واتعاظها بتلك القصص التربوية، فهي تحمل العديد من المواقف التي قد يتعرض لها الإنسان، لذلك نجد القرآن يعج بالعديد من القصص التربوية مثل القصة التاريخية والقصة الواقعية بأماكنها المختلفة وتعدد أشخاصها وتنوع حوادثها بين النجاة والهلاك مثلما حدث مع موسى نتيجة طغيانه في الأرض، فهي كلها قصص تطرح نماذج بشرية قد يقع الإنسان فيها فتكون تلك القصص له صمام أمان من الزلل، والتي يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور خاصة وأن التاريخ كما يقال يعيد نفسه في صور جديدة.

ولعل أول حادث على الأرض قتل قابيل لأخيه هابيل، والتي سردها الله عز وجل في قوله: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.."[31] وتعبر هذه القصة أشهر قصص القرن خاصة أنها أول جريمة يرتكبها الإنسان بعد نزوله للأرض، وهي تحمل معان ودلالات كثيرة يمرر من خلالها القرآن رسائل تربوية عديدة، وفي القرآن الكريم قصص أخرى كثيرة ومتنوعة يمكن للإنسان الاتعاظ وأخذ العبرة منها.

والقرآن الكريم يستخدم القصة لما لها من سحر عجيب على النفس البشرية فهي لجميع أنواع الشخصيات تهذب وتصقل النفس البشرية لما فيها من توجيه يشمل مختلف جوانب النفس: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم.

تفريغ الطاقة

لقد أوصى الإسلام المسلم بضرورة أن يشغل نفسه بما يبعده عن وساوس الشيطان والانحراف فالطاقة الكامنة بداخل الإنسان يمكن استثمارها في الخير كما يمكن استثمارها في الشر، فإن لم يستنفذها الإنسان في الخير فإنه سوف يبذلها في الشر لذلك يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة من خلال البناء و التعمير في سبيل الخير والارتقاء بالأمة.

([31]) سورة المائدة (27-30).

ولعل أبرز الأمثلة: أن يشغل المسلم وقته باستثماره في الذكر والعبادات التطوعية من خلال الاندماج في العمل الاجتماعي وتنمية المجتمع من خلال منظمات المجتمع المدني، وفي تدارس القرآن وحفظه والسعي لتطبيق أحكامه، بهذا لا يجد المسلم وقتا للكره فتتدرب نفسه على حب الخير، كما أن لتضافر جهود المدرسة والبيت دور كبير في تفريغ شحنات الطفل بتشجيعه على ممارسة الرياضة مثلا وغيرها من الوسائل الكثيرة وجدا.

التربية بالأحداث:

الكثير منا لا يدرك لماذا أغلب سور القرآن أحداث متتالية ولعل ذلك لأجل تنبيه المسلم لمآل بعض تلك الشخصيات لأخذ العبرة والعظة فالمثل الشعبي يقول اضرب والحديد ساخن، فالمسلم أثناء تفاعله مع تلك الأحداث تنصهر نفسه وتصقل من جديد فتتهذب وتتطهر.

لأجل هذا كله قام القرآن باستثمار تلك الأحداث في تربية النفوس من خلال اشتقاق العبر، فكان نتاج ذلك جيل قام بتلك الفتوحات الكبيرة عبر أصقاع العالم يشهد لهم التاريخ ليومنا هذا بعظم انجازاته، فالأمة الإسلامية قال فيها عز وجل فقال: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ". لذلك على كل مسلم أن يستغل تلك الأحداث الواردة بالقرآن في شحن نفسه للانطلاق نحو فعل الخيرات.

النتائج

إن نظام التربية الإسلامي ضمان للتوازن الروحي وتناغم مع الحياة، فيكون المسلم خاشع ممتثل للقوانين الربانية التي توجه بوصلة حياته، بوجهه وقار يحسد عليه مصداقا لقوله تعالى: "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ"[32]. لكن هذا الوقار لا يعني الهوان فهو قوة لقوله تعالى: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ"[33].

إن المسلم إنسان صالح بطبعه يجنح دوما لنشر الخير وقيم العدل والسلام متصالح مع ذاته ومع الآخرين متبع لمنهج الإسلام وهو إنساني النزعة يحب الخير للناس جميعا، وهو مسالم يخالط الناس فيؤثر فيهم ويتأثر بهم ويصبر على أذاهم ويسعى جاهدا إلى الإصلاح كل هذا يدفعه دافع الإيمان وأسس التربية الروحية التي اكتسبها من خلال إتباعه لتعاليم الدين الإسلامي.

ونصل في نهاية محطتنا البحثية لهذا الموضوع الذي عني بأسس التربية الروحية التي خص بها الإسلام الفرد المسلم وفق منهج قويم لطالما حرص الإسلام على تشبع المسلم به، ولعل أبرز تلك النتائج ما يلي:

([32]) سورة الفتح (29).
([33]) سورة الفتح (29).

1- للإسلام طريقته الحكيمة في تهذيب النفوس وتنشئة الفرد المسلم بطريقة سليمة متخذا في ذلك أسلوب التربية بالقدوة ومن ثم الموعظة غير المباشرة بالقصة مثلا ليستفيد من سرد تلك الأحداث.

2- الثنائيات الضدية التي تسير مع المسلم تبدو متناقضة لكن أغلب المختصين يذهبون إلى القول بأن اتزان الحياة مرهون بالجمع بين المتضادات، فلا وجود للحب لولا وجود الكره، ولا وجود للجماعات لولا وجود الفرد بداخلها...وغيرهما الكثير.

3- حرص الإسلام على اعتناء المسلم بعباداته فحثه على الاهتمام بعقله وجسمه مثلما يعتني بروحه.